رواية الوجدان العلمي المعاصرة في العراق "كوكب الصفاء" للروائي " سليم مطر" انموذجا

أ.م.د. عالية خليل إبراهيم
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية/ قسم اللغة العربية

الملخص :
تمتد علاقة الرواية بعلم الفيزياء إلى زمن النشأة فقد نهضت الرواية تعبيرا عن اغتراب الانسان في أوروبا الصناعية وانقسام الذات الغربية في خضم المجتمع الليبرالي الجديد وكانت رواية الخيال العلمي التي اشتهرت في أواخر القرن التاسع تمثيلا للروح العلمية للحضارة الإنسانية، أعادت رواية " كوكب الصفاء" للروائي "سليم مطر" طرح جدلية العلاقة بين التقدم العلمي والتقني من جهة وبين مفهوم الحضارة ونظام القيم من جهة ثانية ولذلك فهي رواية" وجدان علمي" أكثر منها رواية خيال علمي ،يقوم هذا البحث بمهمة تحليل ونقد الرواية بغية الوصول لتقعيد مصطلح رواية الوجدان العلمي المعاصرة.

Novel contemporary scientific conscience in Iraq
"Kawkab al-Safa" by the novelist "Salim Matar" as a model

Prof. Dr. Alia Khalil Ibrahim
Mustansiriyah University / College of Education / Department of Arabic Language

Abstract:
The relationship of the novel with the science of physics extends back to the time of its inception. The novel rose as an expression of human alienation in industrial Europe and the division of the Western self in the midst of the new liberal society. The science fiction novel, which was famous in the late ninth century, was a representation of the scientific spirit of human civilization. Salim Matar presented the dialectic of the relationship between scientific and technical progress on the one hand, and the concept of civilization and the system of values on the other hand, and therefore it is a novel of "scientific conscience" more than a science fiction novel.

١-١ توطئة: الرواية فيزياء الحكي:

لم تكن علاقة الرواية بعلم الفيزياء وليدة ظهور روايات الخيال العلمي في القرن التاسع عشر ومنها رواية (آلة الزمن) التي اغرت العلماء بإمكانية السفر عبر الزمن نحو المستقبل، ورواية (أول رجل على سطح القمر) وقد دفعت محاولات غزو الفضاء قدما.

تمتد علاقة الرواية بنظرية العلم إلى أزمنة النشأة فقد جاءت الرواية تعبيرا عن اغتراب الإنسان في أوربا الصناعية وانقسام الذات في خضم قيم المجتمع الليبرالي الجديد، وصف "جورج لوكاتش" زمن الرواية بأنه " زمن انتصار الأنانية الجامحة والحرية الفارغة والعقل المباشر المكتفي بظواهر الأشياء وهي زمن سيطرة المؤسسات وقيم التبادل على الفرد" [١]قدر لهذا الجنس الابداعي أن يحمل أعباء وموبقات الزمان فهو نتاج ذاكرة وعقل ومتخيل انسان العصور الحديثة وصراعه مع أو ضد نسقية العلم والمعرفة، دعا (أميل زولا) في مقتبل القرن العشرين إلى رواية طبيعية تحاكي مكتسبات العلوم مثل نظرية أصل الأنواع وقوانين الوراثة،أما نظرية "آنشتاين" النسبية فقد كان لها الاثر البالغ في الرواية الحديثة بعد أن غيرت مفهوم الزمان والخصائص الهندسية للمكان وحاصرت البديهيات الكلاسيكية في العلم ومنها افتتح " بروست" عهد الرواية الحديثة في بحثه عن الزمن الضائع،لقد وضعت النسبية حدا لإفكار الزمان والمكان المطلقين ووضعت بموازتهما قياس الراصد لهما فلكل راصد قياسه الخاص به للزمن اعتمادا على الساعة التي يحملها معه ولا ينبغي أن يتفق هذا الحساب مع ساعات الاخرين [٢] قال (جينت) " لقد أمد بروست الكتابة الحديثة بدفقها الفيزيائي فبفضل انقلاب جذري تخلى عن وضع حياته في أعماله بينما جعل من حياته عملا أدبيا كان كتابه نموذجا عنها" [٣]،وثارت الرواية الفرنسية الجديدة على يد "الان روب غرييه" على السردية التقليدية التي تحاكي نظام الكون التراتبي ابتكرت نسبية الشخصية وأفعالها وصولا إلى رواية ما بعد الحداثة وهي الأكثر تجريبية في تجاوز أحادية التجنيس إلى أفضية التعدد والاختلاف.

أعادت رواية "كوكب الصفاء" لـ(سليم مطر)[٤] طرح السؤال القديم الحديث عن تهافت ميزان القوى بين التقدم العلمي من جهة وبين القيم الروحية والانسانية والسلام النفسي للفرد من جهة أخرى فالعلاقة بينهما قائمة على التهافت تقدم كبير في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بما بات يعرف بعلم السبرنطيقا بالمقابل هنالك تباطؤ كبير في التقدم الروحي والثقافي والقيمي للبشر، أدى عدم التكافؤ هذا إلى فقدان أو تضييع معنى الحضارة الإنسانية التي تضم إلى جانب مجالات التقدم العلمي والتقني مجال القيم الروحية وحقوق الانسان وبسبب تدهور معيارية العلم أضحى متخيل الحضارة الكونية الراهنة أقرب للمحاكاة الساخرة أو هجاء عالم معاصر مرتهن للكراهية والعنف وفقدان العدالة بناء على ذلك يظل كوكب الأرض بحاجة إلى ثورات علمية ليست على شاكلة ثورات "غاليلو ونيوتن وآنشتاين" ذات البعد المعرفي الواحد وإنما ثورة معرفية إنسانية قبل أن تكون تقنية تسهم في بلورتها الفنون الأدبية والابداعية.

---

[١] -نظرية الرواية والرواية العربية، فيصل دراج، دار أزمنة، عمان، الأردن،٢٠١٨، ١٠.
[٢] -ينظر موجز تاريخ الزمن،ستيفن هونكنغ، باسل محمد الحديثي، دار المأمون للترجمة والنشر،بغداد، ط١،٣٢.
[٣] - خطاب الحكاية، جيرار، ت: محمد معتصم، المشرع القومي للترجمة،مصر،ط٢،٥٤.
[٤] -كوكب الصفاء، سيرة مجتمع اكتشف السعادة، سليم مطر، الدار العربية للدراسات والنشر،بيروت،ط١، ٢٠٢١.

كان العالم والفيلسوف" غاستون باشلار" أول من آهتم بابراز الطابع الثوري للنقد العلمي فقد أكد على رفض فكرة الاتصال في فلسفة العلوم فالبنية الابستمية لفرضي العلم مختلفة عن فرضية العلم التالية لها لذلك فإن مصطلح الجدل (الديالكتيك) الذي يعبر عن الانتقال من القضية إلى سلبها شائعا في اعماله ([1]) إن قوام البنية العلمية لا يشيد بالتراكم وإنما بالتصحيحات أو الطفرات، يطالعنا مفهوم الثورات العلمية عند (توماس كوين) يعرفها بأنها " هي سلسلة الأحداث التطورية غير التراكمية التي يستبدل فيها نموذج ارشادي قديم باخر جديد متعارض معه"([2]) وأكد (كوين) على ضرورة الاهتمام بالأبعاد التاريخية والسوسيولوجية في تطور العلم أضافة للأبعاد التجريبية " يتعين على العلم أن يصف ويوضح مجموعة الأغلاط والأساطير التي حالت دون سرعة تراكم مكونات موضوع العلم الحديث"([3]) تقترب الثورات العلمية من نظيرتها السياسية فتحدث عندما يعجز نموذج علمي عن مجاراة المتغيرات الجديدة في الواقع وقد لا يحكم العلم القياس المنطقي أو التجريبي فيقترب من سرد قصة قائمة على الاختراع والفبركة، إن صورة العالم تبنيها اللغة الموروثة بداية وتظل اللغة في جانبها المعرفي في حوار مع صورة العلم القائمة على النسقية والثورية. إذا وصفنا الرواية الما بعد حداثية بأنها جنس الأجناس القولية والذي بإمكانه انشاء حوار جدلي وثوري مع بنية العلم وفلسفته و العلوم الإنسانية والفنون المجاورة فتلك الرواية هي التي تعبر عن الوجدان العلمي للعصر التكنلوجي والسبراني فالحضارة الانسانية لا تستقيم إلا إذا سارت على قدميها الاثنين العلم والأدب([4]) أن رواية الوجدان العلمي هي الرواية الخطاب المتعدد بالمصطلح الفوكوي "نسبة لميشيل فوكو" وهي رواية الحوار الحضاري بين العلوم الانسانية المستندة للذاكرة والهوية للإفراد والجماعات وبين العلوم الصرفة والتجريبية الاخذة باسباب العبور نحو المستقبل واكتشاف المجهول.

١-٢- مضامين الرواية: الحضارات في ظل ثورة التخاطر:

أثبتت المكتشفات العلمية أن ثمة حيوات على الكواكب الأخرى وهنالك اشارات تدل على وجود مخلوقات تعيش في الفضاءات الكونية الموازية ولو توصل العلم لمعرفة هؤلاء لربما نفعوا البشرية بخبراتهم وساعدوا سكان الأرض على النهوض من كبوتهم الحضارية الراهنة. يسرد الراوي" أدما" حكايته بعد قرون خلت من وقوع ثورة الصفاء في كوكب يدعى "سيلام" وهو كوكب قريب من الأرض فيه حياة وحضارة ولا يبعد عن كوكب الأرض إلا القليل من السنوات الضوئية "تسعة أعوام بقياس أهل الأرض وهي لدينا خمسة"/٩، زمن الرواية مغناطيسيي منجذب نحو المجرات الفضائية القريبة من الشمس في السنوات الضوئية فيكون زمنها أسرع من كوكب الأرض البطيء في حركته نلحظ سرعة الزمن ذلك كأن يقول " مع مرور الزمن والأعوام"/٥٠ و "عدت إليها بعد فترة"/٤٧، تفرض أسلوبية فانتازيا الخيال العلمي هذا المنحى في توجيه الزمن السردي نحو طفرات وانتقالات مفاجئة " يجسد الفانتاستيك ما هو فوق طبيعي أحداثا وأفعالا كما أن الفانتاستك ولد مع اقتحام الفوق طبيعي للعالم الطبيعي"([5])، تتطابق أسماء وهيئة المخلوقات التي تعيش في سيلام مع البشر وبعضم يتزوج من كوكب الأرض للصلة الوثيقة بينهما، حدثت الثورة عندما اكتسح الكوكب طوفان ماء عظيم شبيه بطوفان النبي نوح، وجد الناجون من الغرق في انفسهم القدرة على قراءة ما يجول في أذهان وخواطر بعضهم البعض تعرف هذه الظاهرة علميا التخاطر" وهي ظاهرة لها جوانب نفسية وأخرى فيزيائية تعبر عن قوة دماغ الانسان فوق الاعتيادية في قدرته على التراسل ونقل المعلومات عبر طاقة أدمغة الآخرين، وقد سبقت الثقافة التقليدية علم النفس والفيزياء في اكتشاف قوة التخاطر فقد عرف المسلمون التخاطر وأطلقوا عليه علم الفراسة ويعني أن بعض الناس لديهم ملكة قراءة بواطن الأمور من ظواهرها في الوجود والموجودات،تنقسم الفراسة إلى قسمين ما يحكم صاحب هذه الطاقة بمقتضى صفاء القوة النفسانية المطلعة على عالم الملكوت وقد يحكم بمقتضى الأحوال الظاهرة المحسوسة في الجسد([6]). في وسع التقدم العلمي الالكتروني المعاصر أن ينقل ظاهرة قراءة خفايا نفوس البشر من ملكة فردية يتمتع بها بعض الاذكياء والاتقياء إلى ثورة علمية قادمة من خلال ملكة التخاطر أو زرع أجهزة ذكية في جسم الإنسان تكشف عما تضمره سريرته.

بعد سنوات من الصراعات النفسية عاشها سكان سيلام بسبب انكشاف دواخلهم وما يهجسون به على بعضهم البعض ركنوا إلى السلام والتسامح وصار أهل الكوكب أقرب للمجتمع العلمي المثالي " كل هذا أدى بالتدريج إلى أن تفقد الدولة حاجتها للقوة للسيطرة على الخصوم والمحتجين والمخالفين" /٢٣،فقد أوصلت ثورة التخاطر والشفافية الكوكب إلى حالة التكامل المنشودة بين التقنية من جانب والوئام النفسي وتقبل الآخر من جانب آخر، التخاطر بحسب وصف السارد ثورة علمية عنوانها المحبة والجمال. وبعد هل تبدو ثورة الصفاء مقنعة للقارئ وهل التخاطر والشفافية هي الحل الوحيد لخلاص الإنسان من أزماته الكونية والنفسية؟ هل القاء حمولة اللاوعي عن كاهل النفس يجعلها متسامحة أم أن النفس بطبيعتها أمارة بالسوء والشر صفة ملازمة مثلما الخير من طبيعته؟ قد تكون المشاعر السلبية المكبوتة تجاه الاخرين عاملا مهبطا للتواصل والمحبة بين البشر وهي المسببة لحدوث الاقتتال بين القوميات عبر العالم وبين الأفراد في جرائم القتل لكنَّ اللاوعي والمشاعر المكبوتة تحفظ للشخصية حالة من التوازن بين الهو والأنا والأنا العليا بالمفهوم النفسي وتحفظ للذات فرادتها، فإشاعة تلك الهواجس عبر التخاطر قد يؤدي بالإنسان إلى مزيد من العصاب النفسي وكراهية الاخر بدلا من تحقيق الامن والسلام. يعد التخاطر إلى حد ما تبريرا قصصيا بما حمله من مدلولات نفسية وعلمية وقيمية أطرب خطاب الحكاية في رحلة سردية أدبية (أنثروبولوجية) ترامت حكمتها بين مجرات السماوية وقارات الأرض، بين مخلوقات الفضاء والإنسان، بين علم اللاهوت الديني والناسوت الدنيوي وبين خطابي الأيديولوجيا " التاريخ واليوتوبيا " المستقبل العلمي والأدبي".

---

[1] -مشكلة العلوم الانسانية،تقنينها وامكانية حلها، يمنى طريف الخولي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،ط١، ٢٠١١.

[2] -بنية الثورات العلمية، توماس كوين، ت: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٠٧،٢٠١٥،١.

[3] - الكتاب نفسه،٧.

[4] - ينظر التفسير العلمي للأدب نحو نظرية عربية جديدة،نبيل راغب،مكتبة لبنان ناشرون،ط١، ١٩٩٧/ ٥٥.

[5] -شعرية الرواية الفانتاستكية، شعيب حليفي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف،ط٢٠٠٩،١،٢٩.

[6] - ينظر موسوعة علم الفراسة، الحسيني الحسيني معدي، دار الحرم للتراث، القاهرة،١٩.

١-٣- التشكيل السردي للرواية بين المتخيلين العلمي والإبداعي:

وردت حكاية ثورة التخاطر ضمن متوالية سردية أو مجموعة حكايات مرجعها التاريخ والذاكرة وبنائها المتخيل السردي بحديه الغرائبي المتوقع والعجائبي الممتنع الحدوث، السارد" أدما" روائي من سيلام والده يدعى (ساركون) تزوج من امرأة أرضية بعد أن ادعى أمام السلطات انه عراقي مغترب، يعيش هو وزوجته في فرنسا وأمه تدعى (إينانا) تشير الاسماء إلى العراق تاريخا واسطورة لتنسج صورة للمستقبل من خيوط الذاكرة الدلالية لمكان البداية، لا يظهر العراق في أحداث الرواية التي تدور في اصقاع أخرى من العالم إلا بوصفه نقشا على جسد النص أو حجر سنمار لبناء الرواية حيث بدأ تاريخ البشرية من العراق وإليه المنتهى.

يكلف" أدما" بمهمة رسمية من قبل هيئة البحوث في سيلام مفادها السفر نحو الأرض ومنها يكتب تقاريرا أدبية بعد معايشة أحوال بعض البشر من مختلف الأجناس والدول والثقافات مع التأكيد على اشكالية الهوية الفردية فجهل الإنسان بذاته وخبايا عالم اللاوعي يمنعه من فهم ذاته وتحديد هويته، ويقع الخيار على النجمة " انجلينا" لتكون أو مواطنة أرضية تدعى لزيارة كوكب الصفاء وتعيش مع سكانه تجربة التخاطر كونها نجمة تعاني من اكتئاب نفسي بسبب ضغوط الإعلام والشهرة ولأنها تستحق أن تعيش هذه التجربة لإعمالها الانسانية حول العالم، نهضت الرواية برحلة بدأت بالمستقبل من كوكب الصفاء ثم عادت نحو الأرض الكوكب الذي شوهته النزاعات والحروب والضغائن لتعيد طرح سؤال الحضارة في عصر التخاطر فما هي الحضارة، يتساءل السارد بتهكم في قصة " جيوش الحضارة" أهي حيوان أم انسان"/١٣٨،هل هي أثر الطبيعة في الإنسان والمجتمعات أم أثر العقل العلمي والابداعي في الكون والطبيعة؟، يعود " آدما" إلى الأرض ليعيش أحداث رحلته الاستكشافية على شكل قصص مكتفية بنفسها بنائيا ودلاليا ومتصلة بحكاية التخاطر بوصفها مهيمنة سردية في النص.

تبدأ الرحلة من أصل النوع البشري بالرجوع إلى نظرية دارون الشهيرة القائلة إن البشرية قطعت مراحل عديدة من الهمجية البدائية نحو المجتمع المتحضر وأن تطور الأنواع يحدث نتيجة الجمع بين التباين والانتخاب الطبيعي والتكاثر([1]).

يتعرف " أدما" في حكاية " أول قرد تحول إلى إنسان" في بداية رحلته الاستكشافية على شخصية " مايكل" يكشف هذا لأصدقائه في جلسة سمر تناولوا فيها المسكرات والحشيش إنه ينتمي لقبيلة القرود وإن ارواح اجداده تحل في جسده ويتكلم بصرخاتهم على لسانه وقد تحولت قبيلة القرود إلى بشر بمحض الصدفة وبعض التقلبات المناخية " وأنا أتناول إفطاري الصباحي المتكون من ١١ موزة وثلاث خنفسات وذيل برعص عملاق مشوي مع البصل انقلب الجو وغابت الشمس واسودت السماء وانتشر الهرج والفوضى بين قرود وحيوانات غابتنا"/٤٠ الحكاية بمجملها محاكاة ساخرة لنظرية أصل الأنواع فليس هنالك أكثر اضحاكا من سرد تفاصيل مراحل تطور القرود الحيوان إلى بشر وكيف تخلص الحيوان من ذيله ثم من كثافة شعره ثم من قبحه تفاصيل كثيرة فيها مفارقة النكتة " هنالك فرضية لم تحسم بعد تقول إن حرق شعر رأسي في هذه الحادثة يفسر حالات الصلع لدى الرجال"/٢٤. تؤسس المحاكاة الساخرة لضحك معرفي مصدره ملكة الادراك فهو يكشف تناقضات النص الأصل ويعيد توليد دلالته بأخرى جديدة، يذهب السارد في سخريته إلى مدى بعيد فعندما يتحدث " مايكل" عن ايجابيات الجنس الادمي لا يعلق بذاكرته سوى بعض الفوارق الضئيلة بين الحيوان والإنسان " أود الحفاظ على امتياز بشري لا يمكنني أن استغني عنه أن أعاشر زوجاتي وجها لوجه"/٦٤، لقد قطع دماغ الإنسان مراحل نمو وإدراك في تطوره من المرحلة الحيوانية إلى الآدمية وإن مراجعة نظريات اصل الأجناس قد تزودنا بما لا نعلم عن ماضي البشرية ومستقبلها أليس الأنسان حيوان ناطق كما يصفه الفلاسفة وإن الإرث البهيمي ماثل في حياة الشعوب بممارستهم العنف باشتهاء بالغ وولعهم بالنزاعات وتدمير العمران.قدم الراوي محاكاته الساخرة لنظرية دارون وذكر على هامشها قصة هبوط آدم وحواء من الجنة حكاية الأصل الديني للإنسان، تستند النظريتان على أسطورة فيها من العجائبية والواقعية الصواب والمحال الشيء الكثير ومن الممكن محاكاتهما محاكاة ساخرة وقد تغلبت النظرية الدينية على الدنيوية "الفيزيائية" لأنها دعمت طوال قرون بسلطة النصوص المتخيلة منها والشارحة بينما حجمت الثانية لكونها لم تراكم رصيدا من الخطابات الموازية لها.

ينتقل السارد بالحكاية الثانية من أصل الأنواع إلى اشكالية هوية النوع(ذكر، أنثى) والتنازع التكويني والثقافي بينهما في قصة (بلدة آدم، بلدة حواء) تسرد القصة على لسان امرأة إذ التلوين الصوتي ظاهرة بارزة في الرواية، يعير السارد الرئيسي للقصص المستكشف " أدما" تلفظه لسارد آخر غالبا ما يكون بطل القصة أو المغامرة، تبدأ الحكاية من بلدة اسمها "انسان آباد" قررت سلطاتها بسبب كثرة النزاعات بين الازواج الفصل بين الجنسين كل في مدينة خاصة، تدعى مدينة الإناث " حوا اباد" ومدينة الذكور " أداما آباد" أما البلدة الأصلية التي كان يعيش فيها الازواج والعوائل وأسمها " انسان آباد فقد اخليت لتكون مكان التقاء الجنسين يوما واحدا في الأسبوع ثم نعود في اليوم التالي كل إلى بلدته"/٤٩، سجلت تجربة الفصل الجنسي بعض النجاحات إذ وجد العديد من النساء والرجال أنفسهم في حالة ارتياح وتناغم مع شركائهم في الحياة من الجنس نفسه كما وعانت التجربة من بعض الاخفاقات لأن الكثير من الأزواج اخذوا يحنون للحياة المشتركة بينهما وأخذوا يحتالون على القوانين ليصل كل منهما لبلدة الاخر والمكوث فيها بعض الوقت" وبمرور الأعوام واضطرار الكثير من الأزواج المتمردين إلى هجر الوادي كله والرحيل إلى بلدات بعيدة، بدأت تخفت حدة الرقابة والعقاب حتى عادت بالتدريج بلدتنا الأصلية بلدة كبيرة مختلطة تضم إناثا وذكور"٢٥، تبحث القصة عن جذور العلاقة بين الجنسين هل هي مثلية تقوم على ارتباط كل جنس إلى من يشاكله في الخلق أم هي علاقة غيرية تنزع نحو الاخر تؤسس هوية تشاركية وحياة متوازنة بين الجنسين ؟ التباس الهوية الجنسانية لدى الأفراد لا يعادله إلا غموض أصل الكون وتاريخ لحظة الانفجار الكبير فلا شيء يغذي ذاكرة الإنسان باتجاه عوالم المستقبل سوى حفريات المعرفة التاريخية، حققت الحياة المشتركة بين الجنسين رضا وسعادة للأنثى والذكر طوال قرون وفي الوقت ذاته كانت العلاقة بينهما سببا للعديد من الصراعات والأزمات ليس بين الأفراد فحسب وإنما بين الشعوب والدول وسببا في العصاب النفسي للجنسين والأزمات الاجتماعية،في ضوء ذلك من الممكن النظر بعين العطف والتسامح مع التوجهات المثلية عبر التاريخ لأن هؤلاء لديهم مشكلة في التواصل مع الاخر

[1] -ينظر الانتخاب الثقافي، اجنر فوج، ت: شوقي جلال، المشروع القومي للترجمة، القاهرة،ط١،٢٠٠٥/ ١٧-١٨.

وليس بإمكانهم التخلص من الكبت والأمراض النفسية إلا في العلاقة مع ابناء جنسهم سواء أكانت طبيعة هذه العلاقة شبقية ايروسية أم علاقة صداقة ومحبة بريئة.

إن الجنسين هما الوحيدان القادران على تحديد هويتهما وقد يؤدي تقنين تلك العلاقة في ضوء الأديان والاجتماع والاقتصاد إلى نتائج عكسية فالحبس خلف قضبان علاقات وأدوار صارمة أدى إلى التباس العلاقة بين الجنسين عبر التاريخ، اختارت المرأة الزواج من الرجل الذي تحبه وتسكن معه في البلدة المختلطة" انسان آباد" أما والدها فقد بقي مضطرا في " أدم آباد" أحب والدتها وأراد أن يسكنا سوية لكنَّ الأم رفضت الحياة مع زوجها وفضلت البقاء مع بنات جنسها، ماذا لو حصل رجال ونساء العالم على هذه الفرصة الفريدة في سبيل اكتشاف كل منهما لهويته الجنسية ومن ثم الذاتية، أما الدور الذي قام به " أدما" في هذه القصة هو كاهن البلدة الأكبر " ايتفار" الذي تمكن من اقناع مجمع الشيوخ بتبني تجربة الفصل بين الجنسين /٥٤. تستمد الحكاية شعريتها من حراجة مضمونها وليس من تقنياتها الإيقاعية والشكلية.

تظهر شخصية الكاهن والراهب في أكثر من قصة وكما ذكرت فإن القضايا الكونية التي ناقشتها الرواية اقتضت الرجوع للأديان وتأثيرها الفاعل في سلوك البشر في كافة جهات الكوكب بالرغم ما قيل ومنذ عصر الأنوار في أوروبا عن نهاية سلطة الدين وبدأ الحياة في كنف التقدم العلمي وعالم التقنيات ما فتأت الأديان وما يرافقها من شعائر ومعتقدات تأخذ حيز الصدارة في حياة الإفراد والشعوب. ومع الإشارة لسلطة الدين في عديد حكايات الرواية، وفي تقمص " أدما" شخصية الكاهن في الحكاية السابقة وشخصية الراهب في حكاية " الراهب وأنا وحواء" التي اكمل فيها السارد مناقشة طبيعة العلاقة بين المرأة والرجل من الناحية رؤية عاطفية بالتوازي مع جانب الهوية الجنسية في الحكاية السابقة حيث تظل علاقة الحب لغزا ازليا حير العقول والالباب، يولد الحب في لحظة وينتهي بالسرعة ذاتها فيكتشف الشركاء أنهم عاشوا مع بعضهم سنوات بالعادة والسهو، وقد يظل الحب كامنا في النفس ينتظر الولادة والحياة مثل حكاية الملحد الذي صار راهبا والراهب الذي ترك حياة العبادة والسبب هو حب امرأة واحدة.

أما في قصة " يوم ظهر الرب" فقد توغل السارد في سؤال ضرورة وجود الله في عصر العلم وهل الحياة في ظل التكنولوجيا تقربنا من التدين ومحبة الله أو تقصي البشرية عنهما؟ جرت الحكاية في جمهورية الفاتيكان مركز التدين المسيحي سيدة اسمها (لوريتا) فتحت حاسوبها صباحا لترى وجه الله على الشاشة وفي صفحة السماء وقد انتشر نبأ ظهوره في الجوار وبدأت الجماهير تتجمع لرؤية المشهد التاريخي تهلل وتكبر وتصرخ مهتاجة، صورة الرب كما وصفها السارد " وجه نوراني تطوف حوله ملايين الطيور التي كانت تتكاثر مع استمرار صعودها عن الأرض، ثم استمر بصوت عجيب مزيج ضاحك وعطوف من أنوثة وذكورة وطفولة، ظهر الرب على الشاشات ليبث رسالة للبشر من آمن به منهم ومن لم يؤمن رسالة مفادها " يا مخلوقاتي السامية قد أصبحتم الان بما يكفي من النضج والادراك كي تتحروا من جميع هذه المواريث المقدسة وها أنا أقول لكم جميع الأديان وتعاليمها أصبحت ملغاة وفقدت قيمتها وأنتم أحرار لتتقيدوا بطقوسها لكنها لم تعد تمثلني ابدا"/٧٦ لقد ظهر الله بهيئته الربانية لمخلوقاته ليعلن لهم عن نسخه لشرائع الأديان السماوية الثلاث لأنها لم تعد تمثل حقيقته وإن آخر وصاياه لبني البشر التمسك بحبل (المحبة والجمال) ففيهما الحياة والنجاة.

من يتابع نتاج (سليم مطر) من ضمنها الكتابة الإبداعية والمنهجية معا يجده يكرر الدعوة للجوهر الفلسفي والعرفاني في نظرته للدين والتدين، وجهة نظره هذه مبثوثة في أغلب كتاباته فهو لا ينظر لوجود الله والايمان به من زاوية المسميات والطقوس العبادية والشرائع الضيقة وإنما ينظر إليها من منظور فلسفي متأثر بنظرية العلم ثم منظور صوفي قلبي وروحي، جوهر هذه النظرة الانسجام بين الانسان وذاته بحيث لا تنقسم هويته بين هذا مؤمن وذلك كافر أو ملحد مادام الفرد يفكر ويتصرف بشكل صائب ويوازن بين متطلبات الروح والجسد، الجوهر الثاني هو المحبة بين بني البشر التي يلخصها قول الإمام " علي" في شرعية الاختلاف بين الناس: "فإنهم أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق" كلا هذين الصنفين ما يبرر المحبة ونبذ الكراهية ولقد قام المؤلف بأسلبة افكار الانسجام والمحبة في قصة " يوم ظهور الرب" تستند القصة للدعابة المرحة التي تقرب مهابة المقدس من طرافة المعيش،وتتميز باللغة الشاعرية في توصيفها للرب واستثمار أدبيات النصوص الدينية في تجسيد الذات الالهية مثل قوله " وجه نوراني يفوق حجم الشمس مئات المرات، تطوف حوله ملايين الطيور، بالتدريج تبين أن هذه الطيور رغم اجنحتها بشر يشبهون كثيرا صور الملائكة المتداولة في الرسوم الدينية"/٦٥ صورة الرب قريبة جدا من متخيل الكتب المقدسة التي تصور الله بأن وجهه نور للسماوات والأرض يحيط الملائكة به في حركة دائبة لذلك فإن هذه القصة تعد محاكاة رومانسية للأدبيات الدينية ولا تمثل مروقا عنها أو تجديفا في الدين لولا كلام المؤلف عن نقض الشرائع ونسبه لله!! أما تتمة الحكاية فقد رجع ابناء الفاتيكان ومعهم جميع سكان العالم الذين شاهدوا الخبر عن طريق التلفاز والانترنت للإلحاد عقب أسابيع قليلة من ايمانهم وصلاحهم وتقواهم بعد واقعة ظهور الرب " خلال بضعة أشهر عادت الأمور في أنحاء الأرض كما كانت من قبل الغت الدول قراراتها التاريخية وأعتذر الزعماء عن اعتذاراتهم السابقة وعتقت الثياب التي تحمل صورة الرب، وعادت الأديان والطوائف كما كانت"/٧٢ يتبادل الايمان والإلحاد متوالية الزمن ويبقى الألحاد أقوى لأنه يمثل مركزية الانسان في الكون بينما التسليم ذل وعبودية يشعر الانسان بحاجة روحية للإذعان وتأدية الطقوس العبادية في ظروف معينة لكنه سرعان ما ينبذ التدين إذا انتفى الظرف الداعي للطاعة والأفضل لإنسان المستقبل تجاوز تلك الثنائيات دين ودنيا، عصر الدين و عصر العلم، مؤمن وملحد والنظر اليهما تزامنيا في ضوء وحدة الوجود.

في ثلاث حكايات هي " النسر والحمامة" و" أحفاد طرزان" و"جيوش الحضارات" يطرح السارد موضوعة الحضارة من زاوية انثروبولوجية متفحصة في تأثير عصر التكنولوجيا والمعلوماتية على الفصام النفسي وتصدع ذاكرة الأفراد والجماعات الاثنية وإلى علاقة الرجل الأبيض أو الحضارة الغربية الاستعمارية بالشعوب الشرقية المضطهدة، تدور قصة " النسر والحمامة" عن رجل سويسري هجر حياة الرفاهية والتجأ إلى كوخ خشبي في منطقة جبلية فيها مواصفات الأرض الرحم التي من الممكن أن يولد الانسان فيها من جديد " أنا المعماري (امانوئيل) أسلافي قسس وتجار وصانعو ساعات خلال قرون وقرون عمروا هذه السفوح والجبال بقرى ومدن تحميها قوانين وتغذيها مصارف، ها أنا أحطم الواحهم وأهجر حضارتهم لأعيش تمردي وحيد"/٨١،

ليست الهجرة من المدن الصناعية والتجارية واللجوء إلى أحضان الطبيعة رحلة للاستجمام فقط وإنما رحلة بحث واستقصاء عن ذاكرة جديدة بدلا من الذاكرة العشوائية قصيرة المدى التي فرضتها طفرات الصناعات الالكترونية وهيمنة ثقافة الاستهلاك، وهي رحلة بحث عن خيال ابداعي بدلا من الخيال التصويري للعالم الرقمي يشير السارد في عنوان القصة لرمزية الحيوان في مسيرة الحضارة يتحدث عن صداقة الانسان والحمامة والدور الذي لعبته عبر التاريخ حتى صارت رمزا خالدا للمحبة والسلام " النبي نوح أدرك نهاية الطوفان بعد أن جلبت له حمامة غصن زيتون، يوحنا المعمدان انشقت السماء فوقه لتهبط عليه الروح القدس بهيئة حمامة، النبي محمد أنقذته حمامة نسجت عشها عند باب غار"/٨٣. الحمامة مؤنثة والمحبة مثلها والحضارة هي الأخرى مؤنثة ولها دور فاعل فيها ولقد وجد (أمانوئيل) حمامته" أنثاه" هذبت المرأة طباعه ونقلته من حياة الهرب والعزلة إلى رحاب العمران والمدنية.

تبدو قصص الحياة البدائية الانفة وقد دونت بقلم الروائي السيامي " أدما" شبيهة بأفلام الرسوم المتحركة وحكايات الأدغال التي تدور أحداثها في الغابات والأدغال بعيدا عن صخب المدينة والعلاقات بين سكانها فكانت حكاية "طرزان" ابن الطبيعة حاضرة في المروي له النصي والواقعي أو لنقل إن التخاطر بين نص المؤلف وذهنية المتلقي استدعى هذه الشخصية يحاكي السارد الرواية التي كتبها(ادغار رايس) بدلالة مكان وقوعها في غرب افريقيا يناقش أصلها الاثني المتمثل في الصراع بين الجنسين الأسود والأبيض، كانت السلطة والهيمنة للسود على القارات الأخرى وهم يحتقرون الأجناس الأخرى البيض بخاصة وكان طرزان بحسب الأسطورة القديمة أسود البشرة، وبعد قرون خلت واثناء الحقبة الاستعمارية الأوربية والحروب التي شنها الجنس الأبيض على الجنسين الأسود والأصفر في أفريقيا وأسيا تحركت الدلالة العرقية للقصة طرزان سيد الغابات " إنه اسطورة الحقبة الاستعمارية والممثل الأسمى لتفوق الرجل الأوربي بما يحمل من وسامة ورشاقة وشجاعة وذكاء خارق"/٩٩، ترى كيف سيكون انتقام العنصر الأسود من الأبيض كما شاء فريق السارد " أدما" أن يكون؟،تحكي القصة عن مجموعة من اصدقاء وأزواج رجالا ونساء سافروا في رحلة كشفية في منطقة المستنقعات التي تحيط بنهر الكونغو ظلوا طريقهم بين الأحراش بإيحاء من " أدما" الذي يرافقهم الرحلة طاردتهم الحيوانات المفترسة فدخلوا قفصا حديديا وأوصدوا بابه عليهم هربا من الافتراس،وبمرور الأيام والشهور ودوام العطش والجوع والرعب تغير شكلهم وتبدلت طباعهم، مسحت ذاكرتهم وفقدوا القدرة على الكلام وأصبحوا أكثر شبها بالوحوش التي أخذت تنظر إليهم نهارا وتتسلى " تعودت الحيوانات أن تلقي إلينا بعضا من نتف طعامها لقاء قيامنا بالترفيه عنها بمختلف الحركات والأصوات التهريجية"/١٠٣، ثم انضم للحيوانات المتفرجة عليهم السود من سكان القبائل الأفريقية القريبة من الغابة أخذوا يتفرجون ويضحكون ويرمون لهم فضلات طعامهم وهكذا جاء انتقام القدر وتقلبات الأحوال من أحفاد طرزان الشقر لقد صاروا فرجة وتسلية للحيوانات والأقوام الأفريقية البدائية، حاول المستكشفون انقاذهم من الحالة المزرية التي يعيشونها وتخليصهم من قبضة الحيوانات والسود لكنهم فضلوا البقاء في القفص على العودة للحياة الادمية فقد مسحت ذاكرتهم وباتت أدمغتهم من الناحية الفسيولوجية شبيهة بأدمغة الحيوانات. القصة محاكاة تهكمية لأسطورة كارزان،(Karzan) القديمة ومن بعدها الرواية الاستعمارية" طرزان ملك الغابة" وما اقتبس منها من مسلسلات وأفلام، تنبأ المحاكاة عن كراهية عميقة تحملها الأجناس المضطهدة الأفريقية منها والآسيوية للجنس المستعمر. في ختام كل حكاية يعطي المؤلف الضمني " أدما" تبريرا لما قام به وينطق عن الحكمة والموعظة التي حملتها القصة، قال في ختام " أحفاد طرزان" " بينما أنا أتابع ما يجري في دواخل أصحابي استغربت أني مثلهم أشاركهم مشاعر الراحة وكأننا عشنا ابدا في هذه الحياة البدائية حينما أدركت مدى قوة أثر الطبيعة البدائية في ذاكرتنا المنسية بغاباتها ووحوشها، هي موطن أسلافنا وأمنا الأبدية"/١١ يستبعد السارد الدلالة الأيديولوجية للقصة ليمنحها دلالة جماليات حياة الطبيعة المختلفة عن حياة الحضارة الملوثة في العواصم الكبرى تلك قراءة متضمنة في النص ولا تتقاطع مع تواجد دلالة هامشية حافة لها وجاهة عند المتلقي.

في حكاية " جيوش الحضارة" هنالك تلخيص للحقب التاريخية التي مرت بكوكب الأرض ادت كل منها تمثيلها لمفهوم الحضارة وليس منها من كان نظامه على المستوى القيمي والروحي متقدما بالتزامن مع المكتشفات العلمية، فجر التاريخ جاء بالوثنية ومن بعدها حل عصر الأديان السماوية وخلفهما عصر العلم كل أمة دمرت بنيان سلفها طغت واستبد وصادرت الحقوق والحريات باسم الجديد والمختلف والنافع الذي ابتدعته لكنها لم تورث البشرية سوى الخراب " شرعنا نحن القرويين المسيحيين البدائيين نركع وراء الجنود ونحن نحاول أن نردد تراتيل إله الحضارة الجديدة، أبانا الذي في المختبرات وأمنا التي في المصانع"/ ١٤٤. كل عصر من هذه العصور أعاد انتاج عصر العبودية والهيمنة والتسلط بأساليب متباينة.

لم يغادر " أدما" بعد رحلته الاستكشافية إلى سيلام وبقي على كوكب الأرض، هل مسحت ذاكرته هو الاخر بعد اغترابه سنين طويله عن وطنه، أم بقي لأنه أحب " انجلينا الممثلة الحسناء؟ أم أن كوكب الصفاء ما هي إلا رواية استوطنت رأس هذا الإنسان الأرضي فكتبها ثم صدق خرافتها وقد جن جنونه بعد الإبحار في عوالمها العلمية والمتخيلة ؟ تظل نهاية الرواية منفتحة على تلك الأسئلة ولما يزل لغز الحضارة عصيا على الحل وبالرغم من جميع المكتشفات العلمية وما حققته من رفاهية اقتصادية لبعض الشعوب بينما بقيت شعوب أخرى مستضعفة تستقبل مخلفات الحضارة وقشورها ولم تلامس جوهرها يفترض بالرواية بوصفها الفن القولي الأمثل والأكثر شعبية لهذا العصر ايجاد حلول لألغاز الحضارة المستعصية ولربما تسهم الرواية في تفكيك المفهوم ثم ترجأه بالكشف عن تناقضاته وتنهض بتأسيسه مرة أخرى.

الخاتمة والنتائج :

١- لقد وضعت النظرية النسبية للعالم الفيزيائي"انشتاين" نهاية لفكرة الزمان والمكان المطلقين فلكل راصد قياسه الخاص به للزمن اعتمادا على الساعة التي يستخدمها وقد استثمرت الرواية الحديثة هذا الاكتشاف الفيزيائي في السرد النسبي الموضوعي/ الذاتي للزمن ولغة الراوي والمكان.

٢- تعد رواية " كوكب الصفاء " للباحث والروائي (سليم مطر) رواية وجدان علمي أكثر منها رواية" خيال علمي" لأنها لم تبحر لعوالم المستقبل وتتخيل المكتشفات العلمية القادمة حصرا وإنما تطرقت لمضمون تهافت ميزان القوى الحضاري بين التقدم العلمي من جهة وبين القيم الروحية والاخلاقية مما يجعل متخيل الحضارة الكونية في العصر الراهن محاكاة ساخرة لعصر دموي مرتهن للعنف والقسوة والكراهية بين الافراد والشعوب ورواية الوجدان العلمي لها دورها الفاعل في اعادة اتزان ميزان الحضارة.
٣- استثمر المتخيل العلمي للرواية مفهوم الثورة العلمية والذي سبق طرحه من فلاسفة العلم مثل "غاستون باشلار" و" توماس كوين" يتأسس المفهوم على قانوني الطفرة والقطيعة المعرفية مع الماضي لاكتشاف المستقبل وكذلك وردت ثورة التخاطر في الرواية ارهاصا بمستقبل قادم يكون الافراد فيه والدول منكشفين عاطفيا وفكريا على بعضهم مما يجعلهم يركنون للمحبة والسلام برضاهم أو بسبب انكشاف بواطنهم.
٤- البناء السردي للرواية قائم على فكرة السلاسل السردية أو المتواليات القصصية المنفصلة عن بعضها حكائيا وشكليا والمتصلة مع بعضها بالرواية الاطار وهي "ثورة التخاطر" وقد استثمر السارد أساليب الفانتازيا والعجائبية والمحاكاة الساخرة والأسلبة في رحلة بحثه عن كوكب للصفاء ينبذ العنف والكراهية ويقدس المحبة والجمال.

مراجع البحث:

١- الانسان بين العلم والاسطورة، انتولي كليوسف، ت: عبد الله أحمد، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٢٠.
٢- الانتخاب الثقافي، اجنر فوج، ت: شوقي جلال، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.
٣- بنية الثورات العلمية، توماس كوين، ت: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مكتبة الاسرة، ط١، ٢٠١٥.
٤- التفسير العلمي للأدب نحو نظرية عربية جديدة، نبيل راغب،مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر،١٩٩٧.
٥- خطاب الحكاية، جيرار جينيت، ت : محمد معتصم،المشروع القومي للترجمة، مصر،ط٢، ٢٠٠١.
٦- شعرية الرواية الفانتاستيكية، شعيب حليفي، الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
٧- كوكب الصفاء، رواية، سليم مطر، سيرة مجتمع اكتشف السعادة، الدار العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١،٢٠٢١.
٨- مشكلة العلوم الانسانية تقنينها وامكانية حلها، يمنى طريف الخولي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،ط١، ٢٠١١.
٩- موجز تاريخ الزمن مسار الكون من التمدد الهائل إلى الثقوب السود، ستيفن هوكنغ، ت: باسل محمد الحديثي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط٢،٢٠٢٢.
١٠- موسوعة علم الفراسة، الحسيني معدي، دار الحرو للتراث، القاهرة، ١٩٨٩.
١١- نظرية الرواية والرواية العربية،فيصل دراج، دار ازمنة،عمان،ط١، ٢٠١٨.